واعطاني مكاتيب وصيَّة الى بعض اصدقائه والامر الذي اخرجهُ من الملكة كان وصيَّتها عليَّ الى الوزير والى المطارنة والاساقفة والحكَّام في كل بلاد الهند على مساعدتي. ثم اني تقوَّيت بالربّ واعتصمت باسم والدتهِ مريم العذراء. وخرجت من مدريد قاصدًا مدينة قادس (Cadix) التي هي ميناء على البحر المحيط. فمن بعد سفر اثني عشر يومًا في البرّ دخلت اليها فرأيت مراكب الهند مهيئة ومستعدَّة للسفر. وفي هذه الاسكلة يقام ديوان مدبري المملكة فقدَّمت امر الملكة فسجَّلوهُ لي واعطوني امرًا ثانيًا بموجبهِ

ولمَّا كان اليوم الثاني عشر من شهر شباط سنة الف وستماية وخمس وسبعين من المسيح قدَّمت امري مع المكاتيب الى جنيرال الغلايين (١ دون نيقلاوس ده كورديوا. فحبَّني واستقبلني بكرامة عظيمة واعطاني كامره اي اوضة في مركبهِ فادخلت حوائجي في الاوضة وقفلت الباب. وهذا الغليون هو الرئيس على سائر الغلايين. وقد اخذت معي من قادس شماسًا من طائفة الروم مولودًا في اثينس لاني ما وجدت احدًا من ملَّتي ومن اولاد بلادي. فصار عندي ندم عظيم بسبب اني كنت سرَّحت ابن اخي الشماس يونان الى بلاد الشرق. ولكن ما عادت الندامة تفيد فنصحني البعض من الاصحاب قائلين لي ان هذا الرومي عند وصولك الى بلاد الهند سوف يتمرَّد عليك ويخرج من عندك. فعند وصولي جرى لي كقولهم

ثم اننا في ذلك اليوم المذكور قلعنا ونصبنا الاقلاع وسرحنا. وكان عدد الغلايين ستَّة عشر غليونًا. فتودَّعوا من الاسكلة بضرب المدافع ودقّ الابواق ونصبوا الاعلام والرايات (لها بقيَّة)

سويسرة افريقية او بلاد منليك

بقلم جناب عبدالله افندي نخايل رعد الصيدلي اللبناني في بلاد الحبشة (تابع لما سبق)

٦ القسم الادنى من الحبشة او البلاد الحارَّة

تتألف بلاد هذا القسم من الفلوات الواسعة والسهول المنبسطة والصحاري الفسيحة الفاصلة بين الحبشة والسودان من الشمال والغرب وبينها وبين الكونغو جنوبًا والاوغادن

(١ جمع غليون اي السفن (Galion)

شرقاً وقد ذكرنا معظمها في رحلة الفيكونت دي بورج دي بوزاس (راجع المشرق ٧ : ٢٠٢ وما يليها) فلا حاجة بنا الآن الى الاسهاب . اما هذا القسم من الحبشة فيجري فيه الانهر العظيمة الزاخرة منها نهر « وابي » و « ويبي » و « ارمو » و « گينالي » و « النيل الازرق » و « باروسوبات » و « يوبا » وغيرها اكثرها كبيرة جداً وعرض مجراها يتجاوز الكيلومتر في بعض الاماكن واغلبها تسحب في مجراها رملاً ذهبياً يرسب في القاع فينتشله الاهلون ويغسلونهُ ويستخرجون منهُ الذهب الخالص المعروف بالذهب الحبشي لاختلاف لونه عن لون الذهب الترنسفالي والاوسترالي ميلاً الى الصفرة

احواض هذه الانهر كثيرة الخصب لكنَّها وبيئة الهواء في تلك النواحي من جراء الحرّ ورطوبة الجوّ ووجود المستنقعات العديدة وهي ما عدا ذلك ممتلئة من الوحوش الضارية كالتماسيح وافراس الماء ووحيدة القرن والفيلة والاسود وغير ذلك . حتى ان بعضها لا يستطيع ابن آدم السكنى فيها لانها فضلاً عمَّا ذُكر لا يطاق حرّها اذ ان الدرجة الثرمومترية تبلغ فيها ٧٥ +

ينبت في اراضي هذا القسم كثير من النبات الذي اتينا على ذكرهِ في القسم الاوسط كالتين البرّي والاكاسيا والميموزا والموز والكوباوي وغيرها . اما الانواع المختصَّة بهذه المنطقة فمنهُ خصوصاً شجرة الكوباوي (balsamodendron copahufera) التي يقطر منها البلسم المعروف بهذا الاسم بين المواد الطبيَّة وشجرة النيل (indigotier: indigofera tinctoria) وانواع اشجار الكاوتشوك والپاپيروس الذي يُعمل منهُ في الصين واليابان ورق جميل والسَّمر الهندي والحنَّاء والموسنَّا (musenna: acacia anthelmintica) والسپارمانيا الحبشيَّة (sparmannia æthiopica) وهذان يستعمل قشرهما في الطبّ لطرد دود البطن والانكوكو (brucea antidysenterica) ومن خواصه قطع الديسنتيريا كما يعرّفهُ اسمهُ . اما الشجرة التي تستجلب نظر المسافر ودهشتهُ انَّما هي شجرة الباوباب (baobab: adansonia digitata) وهي شجرة غريبة في بابها يدعوها بعضهم فيل الملك النباتي . طول جذعها لا يزيد على ثلاثة او اربعة امتار فقط وانَّما دائرتهُ تنيف على الخمسة وعشرين متراً وفي اعلى هذا الجذع الضخم تخرج الاغصان كاكليل افقيّ الميل ويرأس كل فرع بعض من الاوراق على شبه الدائرة . اما زهورها فهي ضخمة جداً وناصعة البياض وثمرها بحجم اللقطينة الصغيرة وهو حلو الطعم به شيء من الحموضة

وقد شوهدت واحدة من نوع هذا الشجر وكان قلبها اجوف بعد شيخوختها (والله اعلم كم كان لها من العمر) قد اقتلعتها شدّة العواصف اذ لم يبقَ رمق حياة في أُصولها فكان يأوي اليها الرعاة مع قطعانهم الكثيرة

حرارة بلاد هذه المنطقة شديدة كما ذكرنا فوق هـذا وانّا درجة هذا الحرّ تهبط جدًّا بعد الغروب بنوع انّ الانسان يرتجف بردًا بعد غياب تلك الشمس التي تكون قد احرقتهُ اشعّتها الملتهبة في النهار. وزد على ذلك وخم الهواء معظم هـذه الجهات . فيجب على المسافر ان يتحاشى بقدر استطاعته احواض الانهار فانّ الابخرة فيها وبائيـة قتّالة ينبعث منها جراثيم الحمّيات بانواعها والديسنتيريا وامراض العيون. واذا اضطرّ ان يمرّ فيها فليكن مكثهُ قصيرًا ومروره سريعًا حتى يصل الى الحلّات المرتفعـة والبعيدة عن الماء فيضرب عندئذٍ خيامهُ ناعم البال ويستريح

امّا عن صعوبة الحصول على المؤونات في هـذه الاراضي فحدّث ولا حرج إنّ في الجهات التي يسكنها الاحباش او حيث تقطن عشائر انكالًا . وهذا ممّا يجعـل السفر شديد المشقّة على الذين يتعاطون الرحلات العلميّـة او السياحات او صيد الوحوش النادرة فانهم لا يجدون خانًا ولا من يبيعهم شيئًا حتى ولا خبز الذرة لخدّامهم وعساكرهم لانّ السكّان لا يعملون من هذا الخبز في كل مرّة الّا ما يكفي لوقعةٍ واحدة من طعامهم . وكذلك طحينهم فانهم يحضرون منهُ كفاية يومهم لا غير . لذلك يلتزمون ان يجرّوا معهم على ظهور البغال (لانّ الجمال لا تسلك في معظم تلك الجهات) مؤوناتهم وذخائرهم لأيام كثيرة . امّا من كان معروفًا عند اقوام انكالًا كالمرسلين انكاثوليك وكما كان ايضًا المسيو انطون دي ابّادي فانهم يرحّبون بهِ ويقبلونهُ بينهم كأخ فيدخل اكواخهم ويتكئ معهم على الجلود المفروشة ويشاركهم في عشائهم المؤلف من طُلمات خبز الذرة والحليب والعسل والماء

على ان اصحاب الحملات المهمّة والسياسيّة الذين يُصحبهم النجاشيّ بتندوين من قبلهِ يعرّفونهم برؤساء الجهات التي يمرّون بها ويقدّمونهم لهم كاشخاص رسميين يسافرون تحت حماية الملك . فهؤلاء حيثما حلّوا يتسابق الاهلون لتقديم فوق ما يحتاجون اليهِ من المؤونات . واذ مرّ بتلك الاقاليم انكولونيل مرشان عـائدًا مع حاميتهِ وعساكرهِ من فشوده كنتَ ترى السكّان بحركةٍ عظيمة على طول الطريق التي اجتازها في بلاد

منليك من بحر الغزال الى هرر لانَّ الرؤساء كانوا يصدرون الاوامر الشديدة الى رعاياهم ليحضروا الهدايا والمؤونات لرجال الحملة ويأتون هم للسلام الى مضارب الكولونيل ووراءهم مئاتٌ من الرجال والنساء والاولاد حاملين كلٌ حسب حاله الخراجَ الذي أمروا بتقدمته شعيرًا وذرةً وبقولًا ومشروبات وغنمًا ومعزًى وبقرًا وكان هذا المشهد يتكرَّر في كل محطَّة يعسكر فيها على الطريق. امَّا الرؤساء وعلية القوم فكانوا يشكرون الجنود على حسن نظامهم ويهنئون الضبَّاط على درايتهم في الاعمال العسكريَّة

ولكن على رسلك ايها القارئ اللبيب لا تسرع بحسن الظنّ ولا يخطرنَّ لك انَّ الاحباش قومٌ يقرون الضيف كرمًا او انَّ ما يقدّمونهُ لهذه الحملات يُعطى مجانًا! كلَّا! فانهم ابعد من ان يعرفوا للكرم اسمًا ولا للسماحة ذكرًا! . بل انَّ اصحاب البعثات يهبون للملك اعتياديًا وللرؤساء ما ينيف بعشر مرَّات عن ثمن ما يقدَّم لهم ولولا ذلك لما وجدوا من يأتيهم بحبَّة شعير على الطريق لدوابهم فضلًا عن المؤونات والابقار والاغنام. وربَّما تحامل عليهم هؤلاء الرؤساء ونصبوا لهم المكايد وعرقلوا اسفارهم ولو انَّ الملك قد وصَّاهم بالحماية. كذا الكولونيل مرشان المذكور فانَّ تشكُّراته لعلية اولئك الاقوام على ما ابدوهُ نحوهُ من المجاملة والكرم (ومَثلهم بذلك: جدَحَ جُوَين من سَويق غيره) قد اوضحها بنغمة الاصفر الرنَّان فانهُ وزَّع على طريقهِ في الحبشة نيفًا وثلاثماية الف ريال حبشي ولم ينسَ لطفًا منهُ اولئك الساكين المسخَّرين الذين لا يعطيهم رؤساؤهم فلسًا واحدًا لقاء ما يكلّفونهم تقديمهُ مرغومين من المواشي والمؤونات

على انهُ سيأتي يوم (وعساهُ قريب فانَّ القوم نهضوا من سباتهم العميق) تصبح بهِ هذه البلاد الفتَّانة ميدانًا للتمدُّن والعمران. ولكن فليسمح الله ان لا تدخل رذائل الغرب مع دخول هذا التمدُّن. فكم من مرَّة سمعنا سمع الاذن من افواه العبيد ما يحطّ بشرف الجنس الابيض فانهم يرمونا جميعًا بقلَّة الدين وبعدم الاكتراث بالخالق الديَّان ونحو ذلك لانهم رأوا اعمال البعض منَّا المدَّعين بالتمدُّن فاذا هي مخالفة لما يأمر بهِ الله ولما تقتضيهِ الانسانيَّة والمروءة والذوق السليم. ولله درّ المسيو دي ابَّادي حيث اجاد بالمقال عن هذا الموضوع: «ينبغي على الابيض كائنًا من كان اذا رحل بين الامم السود الجاهلة ان يكون وقورًا رصين الطبع وان يسلك بينهم بحكمة وفطنة وذكاء محتسبًا نفسهُ كانهُ ممثل لوطنهِ وللتمدُّن وللدين»

*

قلنا من ذي قبل كلمةً عن المياه التي تنحدر من اعالي الجبال الحبشيَّة حتى اسافلها وتتجمَّع سيولًا عظيمة تجري في الاغوار حتى تأتي السهول المنخفضة . رأيناها تنهال من جبال القسم الاعلى مختبطةً مع الغمام ومزبدة مع الضباب . ونظرناها تتكسَّر شلَّالات في اغوار القسم الاوسط جارفةً معها الصخور والاشجار والحيوانات . فلنشاهدها اليوم امامنا تجري سيولًا هائلةً في منبسطات القسم الادنى ثم تنصبُّ آخرًا في النهر العظيم او في البحر او تنضب في رمل الصحاري . ولعلَّ القرَّاء الاجلَّاء رأوا في مصر ما ينتج عن بعض بعضها وهو الجزء الذي ينصبّ في النيل . . . قال فيها المسيو انطوان دي ابَّادي الشهير ما معناهُ :

« يسير المسافر في فصل الصيف نهارًا في تلك الارجاء ويضَّجع ليلتهُ ناعم البال تحت ظلّ السماء واذا بصوت غير معتاد يطرق اذن الخدَّام الوطنيين المعتادين على تقلُّبات جوّ بلادهم فيصرخون الماء الماء ! ثم يتراكض الجميع الى اكمة قريبة او يتسلَّقون شجرة عالية ولا يمضي نصف ساعة حتى يغطي ذاك الحلّ المنخفض نهرٌ عظيم من الماء يحمل معهُ ما اقتلعهُ من الاشجار وما اجترفهُ من الحيوانات . ولكنَّ هذا النهر مع عظمتهِ ليس هو الَّا ابن يوم واحد ثم ينشف ويبقي على مسيرهِ بقايا كثيرة ممَّا كان يحملهُ او يطفو على وجههِ وركايا طبيعيَّة بين الصخور قد ملأَها ماء فاصبحت مورد الناس ومستقى البهائم في تلك الربوع »

وحُكي ايضًا عن المثلَّث الرحمة الكردينال ماسايا رسول الكاثوليكية انهُ بينما كان مسافرًا للبشارة في تلك الاصقاع حدث لهُ ان جعل خيمتهُ في احدى الليالي على حافَّة نهر ناشف وبعد ان تناول عشاءهُ قسَّمهُ لهُ الله هنالك لشار الى ارفاقهِ ان يناموا هم اوَّلًا واخذ يتلو فرض صلواتهِ في سكينة الليل المظلم بينما كان يدور خفيرًا على حياة اتباعهِ ويوقد النار حول الخيمة حتى يخيف الوحوش الضارية فيقصيها عنهم . وهو على تلك الحالة اذ لاح لهُ عن بُعد شاسع لمعان برق في السماء لكنَّهُ لم يكترث لهُ ظنًّا منهُ بانَّ العاصفة بعيدة بل عمد بعد اتمام صلواتهِ الى مرقدهِ في المضرب وايقظ واحدًا من ارفاقهِ ليقوم خفيرًا بدلًا منهُ . ولكن لم يكد ملك النعاس يستولي على اجفانهِ حتى ايقظهُ بغتةً صوت رعدٍ هائل ملأَ الفضاء بقوَّة جلبتهِ ولم يمض بضع دقائق حتى رأى

القش الذي كان مضجعاً عليه قد بللهُ الماء . فصرخ حينئذٍ مدعوراً بارفاقه النيام فنهضوا واذ احسُّوا بخطار الغرق الذي كان يتهدَّدهم عمدوا الى شجرة عالية فتسلَّقوها مسرعين ووضعوا فوق اغصانها ما كان عندهم من الزاد والاثواب وكان احدهم قد ربط الى جذع الشجرة نفسها الدابَّة الوحيدة التي كانت معهم لتحمل زادهم ويستريح قليلاً على ظهرها السيد ماسايا عند ما يضنكهُ نصب الشي في الطريق . ولم يمض الَّا القليل حتى حسبوا نفسهم في طوفان نوح لانَّ الماء كان قد غطَّى وجه الارض وارتفع فوقها حتى غمر الدابَّة المربوطة الى الشجرة (وكانت هذه الدابَّة بغلاً) فكانت ترفع رأسها ما استطاعت لذلك سبيلاً لتتمكَّن ان تستنشق الهواء . وهكذا قضى هذا الرسول العبور الطيب المآثر وارفاقهُ ليلتهم ساهرين الى الصباح على اغصان الشجرة حتى اذا جاء النهار وانقطع الماء نزلوا وهم يرجفون من البرد والتعب ثمَّ جمعوا حطباً وحكُّوهُ على بعضهِ بحارة لا يعرفها غيرهم حتى اوقدوا النار بالرغم عن رطوبة العود ليصطلوا

وقال ايضاً الاب دي سلفياك المرسل الرسولي : حدث لي ان كنتُ في شهر آب سنة ١٨٩٩ مجتازاً صحراء الاوغادن صحبة ارفاق لي أُمناء من قوم الكالا وكانت تلك الصحراء وقتئذٍ خاوية خالية من شدَّة القيظ بينما كانت جبال الحبشة ينهال عليها الغمر مدراراً . فوصلنا في ظهر يوم الى محلّ قيل لنا ان به ماء وكان هذا المحلّ مجرى سيل تكتَّهُ كان ناشفاً يتوقَّد رملهُ كأنهُ على بلاط الفرن وترسل عليهِ الشمس اشعَّتها كالهيب المستعر . وهناك يوجد بعض آبار تمتلئ ماء عند مرور السيل يردها الاهلون مع مواشيهم من بعيد ليستقوا منها . فحدث ان في ذلك الوقت لم يكن باقياً في قعر تلك الآبار الَّا قليل من الماء المكدَّر . وكان رؤساء تلك الجماعل قد جزموا على الاهالين (خوفاً من ان ينتهي الماء عن آخرهِ قبل مجيء السيل فيموت الناس عطشاً) ان يسقوا المواشي مرَّةً في كل ثلاثة ايَّام وان يشرب الرجال والنساء مرَّةً واحدة في كل يوم والاولاد مرَّتين وكان يُعطى لكل ربّ عشيرة ما يكفي لذلك من الماء . فلمَّا جاءت العشيَّة انفرد ارفاق المرسل يستنشقون الهواء بعد عناء النهار وحرّه ثم اكلوا ما قسم لهم الله وكان قد اعياهم النصب فاطرحوا نياماً على الحضيض مفترشين الرمل وملتحفين القبَّة الزرقاء ولكن ما عمّ ان افاقهم قصيف الرعود واذا بالافق قد أظلم واكتنفتهُ الغيوم الكثيفة من كل ناحية وصوب ثم اخذت الامطار تنهمل عليهم قطرات ضخمة .

الحجم حتى جرى الماء من تحتهم والحدر السيل بغتةً من بعيد بقوة هائلة وغمر الارضين. فتهلل الناس طرباً وانتعشت الدواب والمواشي التي كان قد قتلها الظمأ فكنت تراها ترفع رأسها الى السماء لتلتقط قطرات الماء في افواهها فانَّ السيل في ذلك الوقت ماؤه عكر غير شروب (لهُ بقيَّة)

الدَوْطة او المنيني

عند العرب واهل الشرق

لحضرة مكاتبنا الفاضل الاب انستاس الكرمليّ

قرأنا في احدى المجلات العلميَّة المصرية السؤال الآتي:

س قد استفاضت المرائد في هذه الايام بذكر ما يُسمَّى بالدوطة فمن الكتَّاب من نقلها بلفظها الاعجمي ومنهم من مزجها تارةً بالمَهْر وتارةً بالصداق وهما خلاف المقصود لان المراد بها ما يؤديهِ الزوج الى الزوجة عند عقد القران والدوطة بالعكس كما هو معلوم فهل كان عند العرب شيء يقابل الدوطة ؟ واي لفظٍ يصحُّ ان يُعبَّر بهِ عن هذا المعنى ؟

فكان جواب المحرّر الاديب ما حرفهُ:

ج لا شك انَّ العرب لم يكن عندهم شيء في معنى الدوطة اذ لم يكن ذلك معروفاً عندهم كما لم يكن معروفاً عند اهل الشرق عامَّةً ولذلك لم يكن في لسانهم لفظٌ يُعبَّر بهِ عن هذا المعنى. على ان الظاهر من استعمال لفظة الدوطة عند الافرنج انها غير مخصوصة بالمال الذي تؤدّيهِ الزوجة الى الزوج. وانما هو قيدٌ اتفاقيٌّ غلب بغلبة السادة فانهم يستعملونها ايضاً بمعنى المال الذي يؤديهِ طالب الرهبانيَّة الى الدير. وهي في هذا المعنى تتناول الذكر والانثى على السواء. وقد تُطلق ايضاً على المال الذي يُفرده الوالد لولدهِ على وجه التخصيص والتمليك. ذكرهُ غير واحدٍ من مشاهير علماء اللغة عندهم وما احرى هذا المعنى الاخير ان يكون هو المعنى الاصلي في هذه اللفظة. وهذا ولا شكَّ مما كانت تفعلهُ العرب شأن غيرها من كلّ أُمَّة. يقولون: نَحَلَ الرجُلُ ولدَهُ مالاً ونَحَلَهُ: اذا خصَّهُ بشيءٍ منهُ. ويسمَّى ذلك المال النُحْل والنُحْلان بالضم فيهما. وجاءت ايضاً البائنة بالمعنى نفسهِ الَّا انها اخصّ من النُحل يقال: ابان الرجُلُ ولدَهُ ابانة اذا افردهُ بمالٍ يكون لهُ على حدة وقد بان الولد بذلك يبين بيونًا ولا تكون البائنة الَّا من الابوين او من احدهما. على ان النُحْل قد يجيء بمعنى الصداق ايضاً ومثلهُ النِحْلة بالكسر فهو من اللفظ المشترك واذا استُعمل في المعنى الذي نحن فيهِ كان من الاضداد اي الالفاظ التي تُستعمل في الشيء وضدّهِ ولذلك نختار هنا العُدُول الى الابانة (كذا. وقولهُ العدول الى الابانة معناهُ الرجوع اليها والمراد هنا العدُول عن الابانة اي الحيُود والميل عنها كما يؤخذ من القرينة) دفعاً للالتباس والله اعلم